الى مدرسة فارتأى تحويل الدير المذكور الى مدرسة يتعلم فيها من كل مقاطعة في لبنان ولدان . فصادق البطريرك يوحنا الحلو على هذا المشروع في سنة ١٨١١ وعضده القاصد الرسولي السيد لويس غندلفي

وفي سنة ١٨١٨ اجمع البطريرك والاساقفة على ان يجعلوا مقام مطران جبيل والبترون في مدرسة مار يوحنا مارون . او الاحرى ان يقال ان ابرشية جبيل والبترون صارت ابرشية البطريرك الخاصة فيجعل له نائبًا احد الاساقفة الذي مركزه في مدرسة مار يوحنا مارون . وممن زادوا هذه المدرسة رونقًا ورسموا نطاق تعليمها الطيب الذكر المطران يوسف فريفر الذي ترأس عليها مدة وافرغ كل مجهوده في نجاحها فصارت في طبقة المدارس الثانوية التي يفتخر بها الوطن منذ نصف قرن . وقد عزز سيادة المنسيور بطرس ارسانيوس رئيسها الحالي دروسها بعد وفاة السيد يوسف فريفر فبلغت في هذه الأيام اوج عزها فحفلت بالتلامذة وازدهت بالعلوم . ومما سرنا انَّ طلبتها لا يدرسون فقط اللغة العربية واللغات الاجنبية بل يتقنون ايضًا اللغة السريانية فيكتبونها ويتكلمون بها (١ . ولولا خوفنا من ان نخرج عن الحدود التي تحريناها في مقالتنا لانبسطنا في وصف هذه المدرسة ومحاسنها لا زالت راقية معارج التقدم والفلاح (ستأتي البقية)

القس يوسف كلداني الحلبي الماروني

بقلم الاب الفاضل القس جرجس منش الحلبي الماروني

ذكر الصديق بركة . هذا ما قالهُ الحكيم في سفر الامثال (١٠ : ٧) فنشط اليد الضعيفة الى تسطير ترجمة هذا التقي النقي الابر مثال التقشف ونموذج الفضائل القس يوسف كلداني المشهود في اواسط القرن الماضي قريبًا . ابتغاء ان يذكرهُ قومهُ ويتأسوا

(١) ونغتنم هذه الفرصة لتقدمة فروض الشكر لسيادة المنسيور بطرس رئيسها الفاضل لما لقينا في مدرسة مار يوحنا مارون من الحفاوة والاكرام كما حلناه في رحلتنا الى بلاد البترون . كما اننا نشكر لحضرة الخوري بولس طعمه لطفهُ لما افادنا بهِ من الاعلامات عن كفرحي ومدرستها وقرى بلاد البترون . وبعض الفوائد التي دونَّاها في مقالتنا قد استفدناها من فضلهِ

بسيرته الفاضلة فيكون لهم واعظاً بعد الممات افعل منهُ في الحياة

هذا ولا بُدَّ لي قبل بسط هذه الترجمة من الشكر لبعض انسباء الفقيد لما تكرَّموا بهِ عليَّ من الافادات في ذلك المقصد

١ ترجمة الفقيد

هو يوسف بن الياس بن بطرس بن يوسف بن بطرس بن يوسف خيَّاط (١ الكلداني الطائفة الموصلي النِجار (٢ الذي قدم الشهباء مع اولادهِ الاربعة (بطرس وزخريَّا واسحق وقسطنطين) في اواخر القرن السابع عشر او اوائل الثامن عشر (٣ لمعاطاة التجارة او الصناعة فاصاب من احداها حظَّاً وافرًا كما يستدل على هذا من يسار اعقابهِ . وعُرفت عائلتهُ مذ ذاك بعائلة كلداني بعد ان انحازت الى الطائفة المارونيَّة (٤

ولد صاحب الترجمة في سنة ١٨٠٦ وهو ثاني اخوته الثلاثة بطرس وشكر الله ونعمة الله . فاشتهر شكر الله بالتقى فكهَّنهُ الطيب الذكر المطران بولس اروتين حكيم في ٣١ تموز من سنة ١٨٤٣ وحلاهُ باسم جبرائيل فاجهد نفسهُ باتمام الفروض الكهنوتيَّة الى ان استشهد في كوانن سنة ١٨٥٠ المشهورة وعُرف نعمة الله بسموّ المدارك فرقَّاه المطران الآنف الذكر الى درجة الكهنوت مع اخيهِ ذاك في الشهر والسنة السابق ذكرهما وسمَّاهُ باسم ميخائيل فظهر كاهنًا تقيًّا غيورًا . ولمَّا عزم المثلث الرحمة المطران يوسف مطر على تشييد كنيسة القديس الياس الجديدة (٥ سيَّر الاب ميخائيل الى اوربة طلبًا

١) سُئلتُ : هل ان عائلة خيَّاط الكلدانية المنتشرة اليوم في جهات الموصل تمتُّ بقرابة الى هذا يوسف . فأجيب : لا اعلم لان ذلك يصعب تحقيقهُ بعد كلّ هاتيك السنين المتطاولة

٢) اعتمدتُ في تسلسل هذا النسب وفي غيرهِ على سجل المعمَّدين المحفوظ في دار الاسقفيَّة المارونيَّة الغامرة ٣) لم اتحقق زمان قدوم الجد الاول الى الشهباء . واقدم ما رأيتهُ في السجل المذكور عماد ابنة ابنهِ بطرس في سنة ١٧١٤ م

٤) من المشهور انَّ الطائفة المارونية قد انضمَّ اليها عيال من الطوائف الاخرى كهذه العائلة الكلدانيَّة وعائلة بكاز الكلدانيَّة القادمة من جهات ماردين في أواسط القرن الثامن عشر وعائلة اروتين حكيم الارمنيَّة القادمة من جهات العجم في منتصف القرن السابع عشر وغيرها من العائلات البعيدة على ما شهد العلامة السمعاني نفسهُ . واخف اسباب انضمام امثال هؤلاء كان اماً ليتملَّصوا من شرّ الاضطهادات التي اثارها اونئذٍ الهراطقة واماً لانضم تكتلكوا على يد الموارنة واماً لانَّهم لم يجدوا لهم كنيسة وكهنة من طائفتهم . هذا ما نعرفهُ ومن كان يعلم غير ذلك فليفدنا بهِ مشكورًا

٥) شرع هذا الاسقف بتشييدها سنة ١٨٧٣ واتمَّهُ نيابةً المأسوف عليهِ القس جرجس مخلص

لاسعاف المؤمنين فسار هذا الى رومية واستماح من السعيد الذكر البابا بيوس التاسع الاذن بذلك فاجابهُ الى سؤلهِ. فجال اوربَّة واميركة وآسيَّة وتمثَّل لدى اعاظم الرجال فحاز منهم اعظم اعطاف وتمكَّن من جمع اموال وافرة. ثم وفد بعدئذٍ على الحضرة البابويَّة فشملتهُ بناظر الرضى وحبتهُ النعم السامية كالتقليد بالصليب والتختُّم بالخاتم والاتشاح بستر ممتاز فوق الملابس الكهنوتيَّة. فعاد الى وطنهِ شاكرًا حامدًا وما سرَّ على عودهِ مدةٌ من الزمن حتى فاجأهُ مرض عضال اوردهُ ورد المنيَّة في ٢٨ آب من سنة ١٨٨٢ رحمهُ الله تعالى. وكانت وفاة بطرس الذي ظلَّ عالميًّا في سنة ١٨٤٦

اما يوسف فعكف منذ صغرهِ على السيرة الفاضلة فلم يتقدَّم سنة من سني حياتهِ حتى زاد في اتباعها اجتهادًا. واقبل بعد ذلك على القنوت واوسع لهُ في جَنانهِ مكانًا رحيبًا فتمكَّن فيهِ واحلَّهُ من الاعتبار مقامًا رفيعًا حتى كان يُشار اليهِ بالبنان. ولمَّا بلغ الشبيبة اشار عليهِ المطران بولس الآنف الذكر ان ينخرط في سلك الطلبة الاكليريكيين ليقتبس معارفهم استعدادًا الى اقتبال الكهنوت فرفض تواضعًا. فالحَّ عليهِ كثيرًا فاعتذر اليهِ بعدم اهليَّتهِ وجدارتهِ لهذه الدرجة السامية وهكذا قضى هذا الاسقف الفاضل دون ان ينال منهُ امنيَّتهُ

ولمَّا تسقَّف الحميد الاثر المطران يوسف مطر عمد الى اقام مشروع سالفهِ وعمل على ان يرقي يوسف الى الكهنوت غير صاغٍ الى اعتذاراتهِ فرأى المترجم بهِ ان يستعين باثنين من شيوخ الطائفة ورجهائها ليبيتا للاسقف عدم جدارتهِ. فابى الَّا ان يكهنهُ واوضح لهما ما ينجم عن كهنوتهِ من الخير والفوائد الجمَّة. فعادا الى مُرسلهما واعلماهُ باخفاق سعيهما ورفض الاسقف وعزمهِ على سيامتهِ كاهنًا. فعلم اذ ذاك ان الدعوة علويَّة فانقاد لها طائعًا وعكف على ترويض نفسهِ تأهبًا للدخول في باب الرتب المقدَّسة ولم يمضِ على الشماس يوسف بضع اشهر حتى رقَّاه الاسقف الى درجة الكهنوت في ١٢ ايلول احد شهور سنة ١٨٥٢ فكان ليوم سيامتهِ رنَّة ابتهاج ردَّدها جميع النساس لما توسَّموا فيهِ من الصلاح والاصلاح

لم يخيِّب الاب يوسف آمال الناس على اختلاف مشاربهم بل اقبل على حراثة كرم

سنة ١٨٩٣. واليوم يسعى في رصفها بالبلاط سيادة حبرنا المفضال السيد يوسف دياب وفَّقهُ الله الى كلّ ما يرضيهِ تعالى

ربّه بعزم لا يعرف ما الكلل وجدّ لا يدري ما الملل فكان يخصص وقتاً للصلاة والتأمل والانقطاع الى الله تعبداً وحيناً لعيادة المرضى والمحتضرين وطوراً لافتقاد المسجونين وتارةً لتعزية المحزونين وكان لا يرغب في التردُّد الى الاغنياء والشرفاء والمجتمعات العمومية بل يؤثر عليها الاجتماع بالفقراء لتعليمهم قواعد الايمان وارشادهم في طريق الخلاص ومساعدتهم باحتياجاتهم وضروريّاتهم. ويجهد نفسهُ بألّا يكلّم النساء الّا حينما كنَّ يعطينهُ الصدقات ليوزّعها على المساكين الى غير ذلك مما ستراهُ في تلخيص فضائله

٢ فضائل التعبد

قال احد عارفي الاب يوسف: انهُ لم يكن الّا روضاً ازدان باشجار الفضائل المثمرة ثمار الاعمال الصالحة الدانية القطوف. وهذا ما اجمع عليهِ سائر مواطنيهِ على اختلاف ترعاتهم ومذاهبهم

ولا بدع فانهُ كان قد رُبّي على التديُّن والتعبد والفضيلة منذ نعومة اظفارهِ حتى صارت فيهِ كغريزة راسخة في سويداء قلبهِ لا يرى عنها منصرفاً او شاغلاً بل كلما تقدم سنّاً ازداد بها شغفاً ولها اتباعاً. فكان اذا اقبل على الصلاة ومناجاة الخالق سبحانهُ فضّلها على كل خير سواها في الدنيا فكانت تمرّ عليهِ الساعات الطوال دون ان يفتكر في الاكل والرقاد. وكثيراً ما كان اقاربهُ يجدونهُ صباحاً جاثياً للصلاة كما تركوهُ مساء.

وكان شديد الحب لفضيلة الطهارة واذا اضطرَّ الى استماع مسئلة من النساء كان يصغي اليهنَّ مطرقاً بنظرهِ الى الارض وكان يجتنب كثيراً الكلام معهنَّ في كلّ مقام وكثيراً ما تلوح على وجههِ امائر الكدر والاشمئزاز عند سماعهِ ان احد الناس ارتكب ما يشوّه محيّا الطهارة الجميل

واما الغنى الذي يطمح الى كسبهِ الناس ويُنضون ركاب الجدّ لاجل تحصيلهِ فكان يحتهُ مؤثراً عليهِ الفقر الاختياري ويتكدّر حينما يرى الشبّان يتفخّرون بملابسهم الحريرية المنوّقة ويزدانون بانواع الزينات الفاخرة. واذا اعترض احد على ثيابهِ الرثة كان يجيبهُ بكل سذاجة: « ان المعلم الالهي يعلمني الفقر بمثالهِ » فكأني بهِ اراد ان يجعل هذه الفضيلة كاساس وطيد الاركان يبني عليهِ فضائلهُ السامية

وقد ازدان بفضيلة التواضع بالرغم عن رفعة مقامهِ فكان يحسب نفسهُ انهُ انسان

خاطئ لا يستحق ادنى اعتبار مرددًا عليه قول المخلص لذكره السجود: « من يرفع نفسهُ يتضع ومن يضع نفسهُ يرتفع » وبناء عليه كان يرغب عن الزائلات الى الباقيات ويهرب جهدهُ من المديح العالمي واذا سمع شخصاً يطرئ فضائلهُ وحسن صفاتهِ كان ينفر منهُ ولا نفور الظبي من مقتنصهِ

وخلا كل ذلك فان تقشفهُ وشظف عيشهِ افضى بهِ الى الهزال فكان لا يأكل من الطعام الّا الضروري لقيام الجسد ولا يشرب الماء أبان الصيف الّا ليطفئ ظمأهُ. ومع شيخوختهِ حافظ كلّ المحافظة على الصيامات بامرها دون ان يخل بشيء منها بل يبالغ فيها. وممّا يُذكر عنهُ انهُ دُعي يوماً عند اسقفهِ الى مأدبة طابت مأكولًا ومشروبًا ولمّا لم يستطع الى الهرب سبيلًا كان يُديف الملح ببعض المآكل لئلا يستلذّ بها ولولا الطاعة لابيهِ لخار العيشة الرهبانيّة على كلّ ما سواها لأنهُ تاق الى اتباع طريقتها منذ صباه

وممّا عُرف بهِ وساوت بذكرهِ الركبان ارتياحهُ الى اسعاف الفقراء والعطف على من ضرب على يدهم الدهر فغدوا من ذوي البأساء فيساعدهم لا من صدقات المؤمنين فقط بل من مالهِ وثيابهِ واثاث بيتهِ ايضاً مع الاعتذار لهم عن عدم مقدرتهِ على الاكثر من ذلك. واذا جاءهُ معدم طالباً نداهُ وليس لديه ما يابى ملتمسهُ كان يخاطب آل بيتهِ في ذلك وهو يقول لهم: « دعوني آخذ هذا الرداء (مثلًا) لهذا الفقير والله لا يضيع اجر الحسنين لانهُ قال عزّ اسمهُ : من يعطِ مسكيناً يُقرض الله » ولم يكتفِ بمساعدة فقراء مذهبهِ وبلدتهِ بل كان يساعد الغرباء عنهما ايضاً فيواسيهم ويعزّيهم في شدائدهم ويؤاسيهم في ضيقاتهم ويسعفهم في احتياجاتهم ويحثّهم الى اكتساب الآداب والفضائل ولدينا رسائل عديدة في مثل هذا المقصد

وفي الجملة فان القلم يقصر دون تبيان حسناتهِ وفضائلهِ وغيرتهِ ووداعتهِ وتقواه وطيب قلبهِ وسلامة نيّتهِ ومؤاساتهِ الفقراء ومناقبهِ الحميدة التي اهلتهُ لاعلى درجة من الاعتبار حتى عدّهُ غير واحد من الناس قديساً مجيداً

٣ وفاة الفقيد

ولما ادركت الاب يوسف الشيخوخة حتى ادركتهُ عوارضها التي اعيت فُطس الاطبّاء عن شفائها. فبقي لا يعبأ بها وهو مداوم على العمل كعيادة المرضى وافتقاد

العافين والصلاة والصوم والارشاد وقضاء الخلات البيعيَّة كما كان دأبهُ في حال صحَّته الى ان وقع يوماً من على المذبح بينما كان يتلو القداس الالهي فرضَّ جنبهُ واخذ منذ ذاك الحين يتخوَّن المرض جسمهُ نحو ثلاثة ايام حتى فاضت روحهُ الكريمة الى خالقها سبحانهُ في غلس يوم الجمعة الواقع في العاشر من شهر شباط احد شهور سنة ١٨٨٢ وهي السنة السادسة والستُّون من عمرهِ والثلاثون لتوسيتهِ. وقد تحنَّز للمنيَّة اي تحنَّز بنوع انهُ في يوم انتقال نفسهِ تزوَّد بكل اخبات وانتباه القربان الاقدس من بعد اقتبالهِ سرَّ المسحة ولم يَغب عن الحس الَّا بضع دقائق

ولمَّا اسفر الصباح انتشر نعيهُ في انحاء الشهباء فاضطربت الاذهان وانقلبت الناس زرافات ووحداناً على منزلهِ متيتِّنين بلثم يديه. ثم سير بنعشهِ محمولاً على الاكتف الى الكنيسة المارونيَّة الكاتدرائيَّة حيث صلى عليهِ فريق من علية الاكليروس يتقدَّمهم سيادة الحبر المثلَّث الرحمات يوسف مطر ويصحبهم وجهاء المدينة وادباؤها على اختلاف النحل والملل حتى غصَّت البيعة على رغم اتساعها. ولمَّا رأى الاسقف كثرة الوفود امر بان تبقى الجثة الى اليوم التالي معروضةً لاكرام الناس الذين كانوا يتواردون أسراباً وافواجاً لوداعهِ واستلام يديه. وكثيرون منهم كانوا يأخذون بعض آثارهِ كذخائر مما يدل على اعتبارهم اياه لطاهر سيرتهِ وسريرتهِ. وعندما تنفس صباح ذاك اليوم التالي (السبت) أُقيم لهُ مأتم آخر انبرى في ختامهِ حضرة الاب الفاضل الخوري نيقولاوس كيلون وأبَّنهُ بعبارات استنزلت العبرات وسرد ترجمة حياتهِ برجيز الكلام وعدَّد المحامد الكثيرة التي ازدان بها والمبرَّات الوفيرة التي آتاها نحو الفقراء على اختلاف مذاهبهم. ثمَّ أُودع اللحد المهيَّأ لهُ في الكنيسة امام هيكل سلطانة الوردية الجيدة بين مظاهر التكريم والترحيم. اجزل الله ثوابهُ وجعل الجنَّة منقلبهُ ومآبهُ

ولقد رثاهُ كثيرون من الشعراء والادباء بقصائد من جيد الشعر اجتزأنا منها بما يأتي رعايةً للمقام. قال حضرة الاب العالم الفاضل والشاعر المجيد المأسوف عليهِ القس اوغسطين عازار الماروني من قصيدة طويلة:

اذا لم يكن نفسح من المرء يُرتجى ... فما هو في الدنيا سوى عضو ميِّتِ
رعى الله من في البرّ انفق عمرهُ ... وعاش بدنياهُ بزهدٍ وحكمةِ
ألا فليش كلّ امرئٍ بين قومهِ ... كما عاش في الدنيا زهيّ السريرةِ

هو الكاهن المشهور بالبرّ والتقى هو المنتمي عن كلّ وصف وشهرة
اذا افتخرت مصر بيوسف عصرها فني يوسف الشهباء بزّي وفخرتي
وان باهت الأيام عجباً بذكره فلا عجب اذ فيه كلّ عجيبة
لقد دبّ بالاقدام طفلاً مبارحاً وشبّ على إقدام كلّ فضيلة
وطلّق دنياهُ طلاقاً مؤبّدا وهام بعشق العزّة العلويّة
وجاهد في سُبُل الجهاد كما سلك وحصّن حصن النفس من كلّ شهوة
يحامده قد اعجزت كلّ مادحٍ كما عجزت عن نعيه كلُّ قدرة
أأنعي رسولاً وهو اعظم مرسل وخير اناء مصطفى للكنيسة
أأبكي شهيداً وهو اكبر شاهد بتقواهُ للحق المبين المحجّة
أأندب واويلاهُ افضل ناسك وقد فاق كلّ الناسكين بخلوة
أأرثي عفيفاً قد تسامى بعفة شذا عطره قد فاح بين البريّة
أأحصي سجاياهُ وتعدادها غدا يفوق نجوم القبّة الفلكيّة
فقدتم ايا رسل المسيح بتيمة على فقدها كلّ المرائر شفّت
على فقده تبكي السماء وارضنا فهذي باحزان وتلك ببهجة

وقال الشاعر الاديب امين افندي الموصلي احد ادباء المسلمين:

فردٌ همام كان ما بين الورى يأوي الفقيرَ ولليتامى يكفُ
قد حلّ في الدنيا مطهّراً ربهُ وعلى العبادة في الليالي يكفُ
يخشى القيامة راجياً ملكوتهُ بتلو اناجيل المسيح بشغفُ
لمّا رأى الدنيا الدنيّة كلّها ظلاً يزول ونور شمس يكسفُ
وتهدّمت كلّ الخليقة عندهُ اضغاث احلام لديه ترخرفُ
طلب الاقالة واستدّ بربهِ فلكم ترى ملكاً بجنح يهتفُ
صعدوا به نحو السماء وقد غدا طرف اليمين جلوسهُ يتشرّفُ
جاء النداء فاز فوزهُ الطيّب اعطيت ذا ملكوتهُ يا يوسفُ

سنة ١٨٨٣

في الخيال

بقلم الاب لويس رزقال اليسوعي

١ تعريف الخيال واقسامهُ

سبق لنا القول ان من جملة حواسّنا الباطنة قوةً جُعلت لاستثبات صور كافة المحسوسات واستحضارها في حين غيبتها فسمّينا تلك القوّة خيالاً او مخيلةً ومما يستخلص